الشـــروق

ديوان شعر للأستاذ حسن كامل الصيرفي

بقلم الأستاذ مختار الوكيل

علم الله كم فرحت وسعدت حينما أهدى إليّ صديقي الكبير الأستاذ حسن كامل الصيرفي ديوانه الجديد الأنيق « الشروق » . فرحت لأنه أعاد إلى ذاكرتي تلك الحقبة الطيبة المباركة من مطالع الشباب النزر الطافر ، التي تعارفنا خلالها وتعاونا في ظلال تلك الدوحة الأدبية الفنية الوارفة الظلال « أبولو » التي رعت النهضة الشعرية في هذه البلاد وفي سائر بلاد العروبة ، وأحدثت — بفضل نشاط باعثها الدكتور أبي شادي نزيل الولايات المتحدة الأمريكية اليوم — نهضة وثابة جريئة في دنيا الشعر والأدب ؛ فعليها وعلى باعثها ورائدها الأول ألف تحية وسلام !! .. وسعدت لأن الشعر الأصيل الحي لا يزال ، في هذه الآونة التي طغت المادية فيها على كل شيء عداها ، يجد التأييد والمؤازرة الصادقة من الناشرين المخلصين الذين يأبون إلا أن يطلعوا القارئين على روائع الإنتاج الأدبي ، فيسوقون إليهم هذا الشراب الخالد من نبع الشعر الكريم ليكرعوا منه فتطهر نفوسهم ويذهب عنها ما يرين عليها من صدأ المادية الصماء !! ..

***

عرفت الصيرفي إذن منذ ستة عشر عاماً شاعراً متصوفاً يميل إلى الرزانة ويجنح إلى الإغراق في التأمل ، لا ينظر إلى ظواهر الأشياء والرئيات وإنما يجسمها ويغوص إلى باطنها باحثاً عن صميمها وجوهرها ، ويتغنى التجارب الشخصية ويكابدها ولكنه لا يتحدث عنها ، إذ ينظم ، حديثاً شخصياً وإنما يسوقها مبلورة في تجارب عامة مما يعانيه جمهرة الناس في كل مكان وزمان . أجل ، وعرفت الصيرفي في ذلك الحين شاعراً رشيق اللفظ موسيقي الجرس ، يحسن بموسيقاه الطلية المنغومة التعبير عن نفسه العانية وروحه النقية الشفافة ، كما عرفته شاعراً صادقاً لا يتعب الناقد في التعرف على شخصيته مما ينظم ! وبينما كان معظم الشعراء أو الذين عرفوا بأنهم شعراء ينظمون في المناسبات التافهة ويمدحون ويتهالكون على الملق والرياء ، ويرثون ويعزون في تكلف البكاء ، كان حسن كامل الصيرفي من القلة الثائرين على تلك الأوضاع المتكلفة المقيتة ، الذين يؤثرون النظم عندما تتحرك عواطفهم وتجيش نفوسهم وتستعد لاستقبال « الوحي » الفني ، ولو كان ما ينظمونه في قطعة ببكاء أو سخرة جرداء !! .. وعرفت الصيرفي في طليعة المنيبين بمثابة الحركة الشعرية في مختلف الأقطار العربية ، بل وفي بلاد المهجر ، فكان يواصل الكتابة ناقداً ومقدماً ومعقباً على النتاج الشعري والأدبي والفني في بلاد المهجر وبلاد العروبة على اختلافها ، وتولى في غير مَنٍّ تعريف الأدباء المصريين وسفائهم في المهاجر الأمريكية وفي الأقطار العربية الأخرى ، في زمن قلت فيه الصلات والروابط فيما بينها . ولعل شاعرنا قد شغف حباً بأدب المهجر ، ولعل نفسه انجذبت إلى تلك الينابيع المتحررة في المهاجر فتاقت إلى انتشاق نفي مماثل .. !! ومن هنا تلاقت روحه بأرواح أولئك المجددين عبر الأطلنطي ، وامتزجت بها في انسجام رائع أنتج لنا تلك الأشعار « الصيرفية » التأملية الصوفية ذات الموسيقى المنغومة والألفاظ الرقيقة الوضيئة !! ..

***

ذلك هو الصيرفي الشاعر كما عرفته منذ ستة عشر عاماً ، وازدادت معرفتي به توثقاً بما كان ينظم وينشر من دواوين حافلة ، إلى أن تفضل فأهداني بديوانه الجديد « الشروق » . فهل تغير الصيرفي أو حاد عن الاتجاهات التي جعلها قبلته ، أو آمن بشعر المناسبات ، أو عزف على أوتار أخرى كانت غريبة عنه في ذلك الشباب الباكر ؟ أشهد لقد طالعت ديوان الصيرفي الجديد فتملت حيالي في كل قصيدة ، بل وفي كل بيت من قصيدة ، تلك العناصر التي امتاز بها شعره الباكر ، وإن كانت الأيام والتجارب قد مكنت لتلك العناصر وأبرزتها في أقوى صورة وأنصع ديباجة .

دافع الشاعر فى قصيدته الأولى عن الشعر ووجه الخطاب فيها « إلى أولئك الذين يقولون إن الشعر لم يعد من مستلزمات هذا العصر » ، ولقد ذكرت ، وأنا أطالع هذه القصيدة الرائعة ، دفاع الشاعر الإنجليزى ب . ب شيلى عن الشعر ، وأشهد أن قصيدة الصيرفى هذه قد هزتنى وحركت شجونى ؛ وأعتقد أنها قصيدة بارعة رائعة ، ولقد أعجب غاية الإعجاب بقوله :

فيوم نُفارق الدنيا وتلك قصيدة الله
سنغرق فى صداه المذهب بين ضبابه الزاهى

وهنا يلخص الشاعر الكون كله ويختصره ويعتبر نهايته « القصيدة الكبرى » قصيدة الشاعر الأكبر المعجز !

ولعل قصيدة « الحرمان » التى أهداها الشاعر إلى صديقه الدكتور أبى شادى ، الذى ناضل وجاهد ، وأحس بمرارة الحرمان؛ هى من خير قصائد الديوان ، بل لعلها من أقوى القصائد التى تصور الحرمان فى الشعر العربى الحديث . اسمعه يقول :

أعبد الحسن زهراً فى كوكب
أجتليه صامتاً لم أعرب
وهو لم يشعر بإحساسى وبى . . . !
خاطر من حسنه فى موكب
مشرق من نوره المنسكب
فائض الكأس شهى المشرب . . !

ولا أستطيع التعليق على هذه اللوحة الفنية البارعة ، لأن كل محاولة تبذل فى هذا السبيل إنما تشوه من جمالها وتخدش من ملاحتها ، واستمع إليه حيث يقول :

كلما جئتُ بمعنىً مُشرب
عن هوى قلب ولوع متعب
فرَّتْ الألفاظُ حيرى تختبى
فهى كالشمعة فى عين الأبى
وهى كالفكرة فى ذهن الصبى . . !
وهى كالقتنة فى قلب النبى . . !

والواقع أن الشاعر الذى تفر منه « الألفاظ » وهو يبحث عنها جاهداً ساعة الاحتشاد للنظم هو وحده الذى يستطيع أن يدرك جمال الحيرة وجلال اللوعة المختلجين فى هذه الأبيات المعبرة غاية الإعراب عن القلق والحرمان

أما أغنية « الفيلة » فهى من أرق المقطوعات الغنائية التى طالعتها أخيراً ، وهى جديرة بأن تلحن وتغنى فتطعم أغانينا بطراز رائق من الفكر الممتاز والمعنى المستطاب ، ويا حبذا قوله منها :

أغرودة فى الكون يطوى بريق العيون
فيها ، فتور الجفون
لو ردَّتها الشفاه
فى لثمها . بادلينى !

* * *

والصيرفى فى قصيدته « اجلينى حلماً » شاعر متصوف حالم رقيق اللفظ نقىّ الصور ، ويا ما أبرعه حيث يقول :

إجلينى حلماً يطوف ويسرى من قلوب الورى إلى شفتيك
اجلينى حلماً لذيذاً شهياً مثلما يحلم الفقير بملك
اجلينى حلماً كما أنت حلمى فأريك الحياة من غير إفك
بلبلات الخيال تنقل عنى شعر قلب نقاته أنا منك

كذلك يبلغ الصيرفى المدى فى الإجادة فى قصيدته « الأفق » حيث يقول :

أنت كالأفق إذا حاولت أن أبلغ الغاية منه بعدا
تعبت عيناى فى إدراكه وشكت رجلاى فيه الجددا
أشهد الأسرار فيه تختفى كالأغانى فى تضاعيف الصدى
فإذا حاولت أن أكشفها صرت سراً طيها قد خلدا
ليتنى أفق ! فلا أتعب من يرتجى الأفق وقربت المدى !

كذلك يبلغ الصيرفى أقصى غايات الإبداع فى قصائده العاطفية الصادقة « تهداتى » و « القائد الدحور » و « وحدة العمر » ، وهذه الأخيرة مقطوعة من الشعر التجريبى المشوب بالفلسفة الهادئة الرزينة ، على الرغم مما تنطوى عليه من مرارة وسخرية كما فى قوله :

تعال فربما جاوزت دارى
فتجزينى الحياة إلى قرارى
فأمشى بين أضواء النهار
إلى ليلى وجهزأ بى انتظارى !

وشد ما أعجبت « بنشيد الثورة » الذى نظمه الشاعر فى

نوفمبر عام ١٩٣٥ وكم يكون رائعاً ومفيداً لو وجد هذا النشيد عناية من ملحني العصر البارزين ، ولا أحب أن أنبس منه هنا ، فيحسن الرجوع إليه جلة في الديوان ، لأن النقل منه يشوه جماله.

ولقد لاحظت في شعر « الشروق » ظاهرة « جديدة » هي ميل الشاعر إلى الإكثار من الحديث عن « الصمت » و « السكون » ففي قصيدة « إلى الميد » يقول :

«والصمت» ينمره ويفني ذاته وقد يكون «الصمت» خير تعبد

ويقول في القصيدة نفسها :

طال الوقوف به تأميا «صمته» هل تنفع النجوى بباب موصد؟

ويقول في قصيدة « ساعة اللقاء » :

ساكن الأرض « صامت » في حنين
لنشـــيد صريح من سمائك

وفي « ثمرة الفن » يقول :

ما أعجب « الصمت » أحياناً وأنطقني !
فهل يحرك هذا « الصمت » منشده ؟

وفي « تهدافي » يقول :

قالت : علام تهدافك في « سكونك يا حبيبي ؟
هل أنت في فردوس حبك حامل عبء الغروب؟

وفي « ثورة الجدول » يقول :

« سكنت » إليه « سكون » الملى
أمام جـــلالة عـــرابه
يعانق نور الجلال البعيد وينسى الرغائب في بابه

وفي « موت فنان » يقول :

أأنت يا « صامتا » تؤوب أيامه للدى البعيـــد

ويقول :

هجرت أخانك العذاب وعشت في « صمتك » الحزين

ويقول :

« أصمتك » الوحش الكئيب يا هاتف الأمس سخريه
بعالم منـــرم يذوب على ترانيم أغنيـــه ؟

ويقول :

قد خف في « صمتك » الحنين بروحك الحية الصدى !

إلى غير هذه الإشارات والتعبير والصور التي تنوه بالصمت وترسم السكون في لوحات موحشة وأخرى ساخرة أو حزينة أو متفلسفة أو رمزية .

حقاً لقد سعدت بمطالعة ديوان العبر في الجديد «الشروق» هذا الديوان الذي أضاف كثيراً إلى ثروة الشعر المصري الأصيل المبتدع الذي نسعى جاهدين لكي يزداد ازدهاراً وإشراقاً ، حتى تكون له آخر الطاف على مدرسة الاتباعيين والتقليديين الذين يعيشون على المدائح والمراثي والمجاملات والمناسبات .

فهنيئاً لمدرسة الجديد بهذا الديوان الرشيق الذي سكب فيه شاعرنا الكبير روحه المتأملة ، وعاطفته الخالصة ، وموسيقاه الرقيقة ، وهنيئاً لشاعرنا بهذا الإنتاج القيم الذي نرجوه أن يتصل ويستمر لخير النهضة الشعرية .

مختار الوكيل

لجنة النشر للجامعيين

تستأنف نشاطها وتقدم

كتاباً ممتـــازاً

للأستاذ الكبير سيد قطب

العدالة الاجتماعية في الاسلام

٢٧٠ صفحة من القطع الكبير ٢٥ قرشاً

يطلب من مكتبة مصر بالفجالة

وسائر المكتبات